دفاع عن الأدب

للأستاذ أنور المعداوى

الأدب الذى أعنيه هنا هو أدب الاعترافات ، أو أدب التراجم الذاتية ، أو أدب البوح والافضاء كما يسميه الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه .

ومن العجيب أننى حين تناولت القلم لأكتب عن أدب الاعترافات ، وقعت على رأى لكروتشه يهاجم فيه هذا الأدب هجوماً عنيفاً ، ويرميه بالتأنث والسفاهة وقلة الحياء والضعف والانحلال ! .. ولو أن رجلا غير كروتشه قد أبدى هذا الرأى فى مثل هذا اللون من الأدب لما أثار فى نفسى شيئا من العجب أو شيئا من الانكار ؛ ذلك لأنه يبدو أمام المتتبعين لنظرياته فى فلسفة الفن متناقضا مع نفسه ، مترجحا بين اليمين والشمال ، لا يكاد يستقر على رأى ينادى به حتى يعود فيتحول عنه ... إن من يقرأ رأيه فى أدب الاعترافات منفصلا عن رأيه فى نقد المذهب الأخلاقى فى الفن ، ليتبادر إلى ذهنه أن كروتشه من أنصار هذا المذهب والداعين له ، مع أنه من أكثر خصومه الحاحا فى الخصومة ، وإغراقا فى التحامل ، واسرافا فى الهدم والتشهير ! .

يقول كروتشه فى تعليل ازدياد عدد الكاتبات من النساء : وعندى أن علة ذلك الحقيقية هى هذا الطابع الاعترافى الذى اصطبغ به الأدب الحديث ، فبهذا الطابع إنما فتحت أبواب الأدب على مصاريعها أمام النساء اللواتى يمتزن بالانفعال والنشاط ، فإذا قرأن كتب الشعر لاحظن فيها ما ينطبق على مغامراتهن الشخصية وفواجعهن العاطفية ، فلم يصعب عليهن أن يفرغن ما فى قلوبهن بدون أن يعنين بالأسلوب (والأسلوب كما قال بعضهم يحق لا يأتى من امرأة) . فلئن أصبح للنساء إذن نشاط ملحوظ فى حقل الأدب فلأن الرجال قد تأنثوا بعض الشىء من الناحية الفنية ؛ ومن علامات هذا التأنث قلة الحياء فى عرض مباذلهم ، وهذه الحمى من الصدق التى ما دامت حمى فليست صدقا ، وإنما هى شىء من التصنع الذى يوصل المرء بالسفاهة إلى اكتساب ثقة الناس على نحو ما فعل روسو لأول مرة » ...!

هذا هوارى الفيلسوف الإيطالى فى أدب الاعترافات ... تأنث وسفاهة وقلة حياء ، ويزيد على ذلك قوله بأن هذا اللون من الادب يتسم بالضعف فى طريقة التعبير ، فهو على التحقيق أدب لا أسلوب له ! وقبل أن أعرض لرأى كروتشه فى نقد المذهب الاخلاقى فى الفن ، كاشفا عما فيه من تناقض مع رأيه فى أدب روسو وكل أدب آخر يحمل ذلك الطابع الاعترافى ، قبل هذا كله أود أن أقول إن تلك الحملات التى شنها الفيلسوف الايطالى على هذا اللون من الأدب تبعد كل البعد عن جوهر الواقع الملموس ؛ لأننا لو وضعنا اعترافات روسو أو يوميات أندريه جيد

ما مشى أنور على الطريق الذى فتحه له من قبله ، بل على طريق شقه هو لمن بعده . وكان أنور إمام جماعة الشباب ولم يكن مؤتماً تابعا . ولولا نفس من شعر شوقى فى مثل (ليل الحزين) من بواكيره ، وروح من الأدب الفرنسى فى بعضها ، لقلت بأن أنور لم يقلد فى أسلوبه أحداً أبداً . وهل لشاعر مثل الذى لأنور فى وصف الطبيعة وفى وصف البلدان وفى وصف الرؤى والأحلام ، حتى يقلده أنور ؟

وبعد فهذا ديوان الوفاء للعربية : نخل مفرداتها فاختار أطيبها ، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها ؛ وديوان الوفاء لأقطارها : جرى بردى منذ الأزل ، وقام لبنان ، فهل قال شاعر فى بردى مثل الذى قال أنور ؟ هل نظم فى لبنان مثل ما نظم ؟ وهل يعرف القارىء فى الشعر العربى كله قصيدة فى وصف الطبيعة أعظم من (لبنان) التى اشتمل عليها هذا الديوان ؟ أنا لا أبالغ ولا أغالى ، وهذا الشعر العربى بين أيدى الناس فمن عرف أعظم منها فليقل ... ولكن المعاصرة حرمان ، وأزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه ، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر ، وتميز الزجاج من الجوهر ، والنحاس من الذهب ؛ وهنالك بعد أن يذهب الرجال ، وتنقطع الصداقات والعداوات ، ولا يبقى إلا الأدب الذى يستحق الخلود ، تعرف قيمة (لبنان) وقيمة (بردى) ، وهنالك بعد أن يعفى النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع ، وتشغل الناس ، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين .

(دمشق) **علي الطنطاوى**

فى ميزان النقـد ، لاكتملت لها كل الصفات التى ينشدها الباحثون عن حقيقة الفن . . الفن فى كلمات هو أن يعيش الفنان فى أعماق الحياة ، وأن يستخدم كل حواسه فى تذوق هذه الاعماق ، وأن يملك القدرة على التعبير الصادق عما شهد وأحس حين يتناول ريشته ليسجل انعكاس الحياة على الشعور ، وتلك أشياء يلمسها الناقد فى اعترافات روسو ويوميات جيد .

الاعترافات واليوميات صورة واقعية لفترة من حياة الكاتبين الكبيرين ، تعد فى حقيقتها لونا من الترجمة الذاتية التى تضع فى يد القـارىء والناقد مفتاح شخصيتهما الادبية والإنسانية ؛ فإطلاق الرأى فيها بضعف الاسلوب أمر لا ينطبق على الواقع ؛ لان الصدق فى التعبير صفة من صفاتها الرئيسية وسمة من سماتها الأصيلة ... وليس هناك أسلوب مهما اتصف بالقوة أو بالجمال يستطيع أن يشق طريقه إلى القلوب والآذان ، مالم يستند إلى أقوى دعامة يمكن أن يستند اليها ، ونعنى بها الصدق فى التعبير ! ومع ذلك فإن صدق التعبير وجماله يتهيآن لروسو فى أكثر فصول كتابه ، وبخاصة فى تلك المواضع التى تشير إلى علاقاته الوجدانية بمدام دى ڤارنس .

ولعل فى رمى الأدب الاعترافى بالتأنث كثيرا من الإغراق فى التجنى والاسراف والتحامل ، وذلك لان كتاب الاعترافات يقدمون إلى النـاس صفحات من سجل الحياة سطرت بمـداد الصراحة والامانة والصدق ... صفحات عارية لا تكاد تشح بقلالة واحدة من غلائل النفاق الاجتماعى وتمزق عواطف الجماهير . ولامرى أن الـكاتب الذى يعرض أمام الناس فترة من فترات حياته بما فعلت من خير وشر ، من فضيلة ورذيلة ، من لذة وألم ، دون أن يخشى فى ذلك نقدا أو ملامة أو زلزلة لمـكانته الأدبية والاجتماعية ، هذا الكاتب فى رأيى ورأى الحق رجل قوى جدير باحترام الأقوياء وليس متأنثا كما يدعى كروتشه ... إن هناك كتابا يتظاهرون فى كتاباتهم بحب الخير والتمـسك بأهـداب الفضيلة وهم غارقون فى حمأة الموبقات ، فهل نستطيع أن نسمى أدبهم أدب قوة ؟ كلا ! ولا نستطيع أن نرفع قيمة هذا الأدب إذا ما قسناه بمقياس الفن الصادق ، مقياس صدق التعبير عن الحياة ؛ لأنه أدب يعبث بالحقائق ، ويشوه الوقائع ، ويكذب على الحياة والناس ! ... إن أدبه جيد لو لم يكن متأثراً فى كتاباته بفيلسوف القوة نيتشه ، لما تهيأ له أن يتناول قلمه ليكتب ما كتب فى اليوميات ! .

ونعود إلى تهمتى السـفاهة وقلة الحياء اللتين ألصقهما بكتابات من نقد كروتشه للمذهب الأخلاقى فى الفن ومنها يتبين مدى التناقض الذى وقع فيه الفيلسوف الإيطالى حين دافع عن حرية الفن فى مكان ، ثم عاد فهاجم الحرية فى مكان آخر ...

يقول كروتشه : « إن الفنان لا يمكن أن يوصم من الناحية الأخلاقية بأنه مذنب ، ولا من الناحية الفلسفية بأنه مخطىء ، حتى ولو كانت مادة فنه أخلاقا منحطة ، فهو — كفنان — لا يعمل ولا يفكر ، ولـكنه يعبر ... إن فنا يتعلق بالأخلاق أو اللذة أو المنفعة ، هو أخلاق أو لذة أو منفعة ولـكن لن يكون فنا أبدا ! » .

ويقول : « لئن كانت الإدارة قوام الإنسان الفنان ، فليست قوام الإنسان الفنان ؟ ومتى كان الفن غير ناشىء عن الإدارة فهو فى حل كذلك من كل تمييز أخلاق ... إنك لا تستطيع أن تحكم بأن فرانسـكا Francesca دانتى منافية للأخلاق ، ولا أن جورديليا Cordelia شكسبير أخلاقية ، وما هما إلا لحنان من روحى دانتى وشكسبير ليس لهما إلا وظيفة فنية ، إلا إذا استطعت أن تحكم على المربع بأنه أخلاق وعلى المثلث بأنه لا أخلاق ! .. إن من تفرعات المذهب الأخلاق قولهم إن غاية الفن أن يوجه الناس نحو الخير ، ويبث فيهم كره الشر ، ويصلح من عاداتهم ، ويقوم أخلاقهم ، وإن على الفنانين أن يساهموا فى تربية الجماهير وتقوية الروح القومى أو الحزبى فى الشعب ، أو اذاعة المثل الأعلى الذى يفرض على المرء أن يحيـا حياة بسيطة جاهدة وما إلى ذلك ... والحق أن هذه أمور لا يستطيع الفن أن يقوم بها أكثر مما تستطيع الهندسة ذلك . فهل عجز الهندسة هـذا يجردها من حقها فى الاحترام ؟ فليت شعرى لم يريدون إذن أن يجردوا الفن من مثل هذا الحق فى مثل هذه الحال ؟! »

هذه الـكلمات التى يسوقها كروتشه ليدافع بها عن حرية الفن لا تتفق بحال وما ذهب اليه فى نقده لأدب الاعترافات ... ومع ذلك فلا يمكن أن نجد خيرا منها فى مجال الدفاع عن اعترافات روسو ويوميات جيد ! .

أنور المعداوى